الفصل الثامن

بيان بالآيات الكريمة التى ذكرت فيها مصر صراحة وكناية وتنبيهًا

قال ـ عز من قائل ـ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾[1] الآية، وذلك على الحكاية، ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ﴾[2]، وقال ـ تعالى ـ عن قصة يوسف الصديق: ﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾[3]، ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾[4].

وقال فى قصة فرعون: ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ﴾[5]، وعن قصة يوسف الصديق قال ـ عز من قائل ـ: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾[6]، ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾[7]، و ﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾[8]، ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾[9]، كما قال ـ تعالى ـ فيما يختص بعيسى ـ عليه السلام ـ والسيدة مريم: ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾[10]، ﴿ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ﴾[11]، ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ﴾[12]، ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي ﴾[13]، ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾[14]، ﴿ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ ﴾[15]، ﴿ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾[16]، ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ﴾[17]، ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾[18]، ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ

---

(١) سورة البقرة: الآية ٦١.
(٢) سورة يونس: الآية ٨٧.
(٣) سورة يوسف: الآية ٩٩.
(٤) سورة يوسف: الآية ٢١.
(٥) سورة الزخرف: الآية ٥١.
(٦) سورة يوسف: الآية ٣٠.
(٧) سورة القصص: الآية ١٥.
(٨) سورة القصص الآية ١٨.
(٩) سورة يس: الآية ٢٠.
(١٠) سورة المؤمنين: الآية ٥٠.
(١١) سورة يوسف: الآية ٥٥.
(١٢) سورة يوسف: الآية ٢١.
(١٣) سورة يوسف: الآية ٨٠.
(١٤) سورة القصص: الآية ٤.
(١٥) سورة القصص: الآية ١٩.
(١٦) سورة الأعراف: الآية ١٢٨.
(١٧) سورة الأعراف: الآية ١١٠.
(١٨) سورة الشعراء: الآية ٥٧، ٥٨.

مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾[1]، ﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ ﴾[2]، يقول بعض المفسرين أن المقصود بالـربوة مصر، كما قال بعضهـم الآخر المراد بها دمشق، غير أن جـمهرتهم قالت إن المقصود بها مصر، ﴿ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾[3]، ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾[4]، ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ﴾[5]، ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ﴾[6].

قال بعـض المؤرخين إن حديـقة إرم هى مدينـة الإسكندريـة، أما المقريـزى صاحب الخطط فيقول: إن حديقة إرم فى أرض بجوار مصـر تسمى «سبيل علام»، وقد أخفاها الله حتى قيل أن جواهر وجدت فى سبيل علام وقـد رأيتها تباع بألف قرش. وبناء على قول بعض المؤرخين أن حديقة إرم بالقرب من دمـشق، أن أعرابيًا أناخ بعيره فرأى الجنة وذلك فى عصر بنى أميـة، وملأ مخلاة بثمار أشجارها وأحجارها وحمـلها إلى الخليفة فى دمشق وعرضها عليه، فَعُلِمَ أن حديقة إرم بالقرب من دمشق.

وقال كثير مـن أهل العلم أنها مصر لأن بـانيها شداد بن عاد ووطنه الأصـلى مدينة أسوان، وقالوا إن حديقة إرم فى مصـر على الأرجح، وجاء عن مصر: ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ ﴾[7]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾[8]، ومن الحق أن مـن جند مصر كـثيرًا من الفاسـقين والجبارين والـعتاة، ﴿ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾[9]، وجميع الرعايا والبرايا فيها من قوم الفراعنة، وهم جبارون بحكم جوها، ويـتألفون من طائفتين، طائفة هـابيل وطائفة قابيل، فطائفـة منهم أخيار والأخرى أشرار، فهم ليل نـهار فى تشاجر وتناحر، والغالب يبقـر بطن زوجة المغلوب ويقتل جنيـنها وهم على هذا النحو جـبارين عتاة، وفرسهم الذى يشـرب من ماء النيل

(١) سورة يونس: الآية ٩٣. (٢) سورة البقرة: الآية ٢٦٥. (٣) سورة المائدة: الآية ٢١.
(٤) سورة السجدة: الآية ٢٧. (٥) سورة فصلت: الآية ١٠. (٦) سورة الفجر: الآية ٧، ٨.
(٧) سورة يوسف: الآية ١٠٠. (٨) سورة الأعراف: الآية ١٤٥. (٩) سورة هود: الآية ٥٩.

جموح، وقال الله عنهم كذلك: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾[1]، ولكن ما ذكره الله ـ تعالى ـ خاص بالبلد القديم وما فيه من جبارين وفاسقين ما كان له دوام وفيه البلاء، كما أن الجراد كذلك لا يدوم له فى مصر البقاء، وبحمد الله ـ تعالى ـ لا يصيب الجراد محاصيلها قط، وفى عام ١٠٨٨ إذ كان عبد الرحمن باشا واليًا على مصر هبط الجراد فى مصر كالوابل، حتى ضؤل وهج الشمس، واسودت السماء ولم يشاهد وجهها، ولما هبط الجراد على الأرض بفضل الله احتفلت المدن والقرى والكبار والصغار بعيد الأضحى وطعموا وانمحى الجراد ذات يوم وغرق فى النيل.

وفى رواية أنه هلك بريح عظيم، وفى عهد الرسول ﷺ أصاب الجراد مكة ووادى فاطمة فقال أهل مكة: يا رسول الله إن الجراد أصاب مدينتنا فما عاقبة الأمر؟ ولما قالوا ذلك بسط ﷺ يده فدعى الله قائلاً: أرسل هذه الحشرات إلى مصر. فقال الصحابة الكرام: يا رسول الله إن كل أرزاق أمتك فى مكة والمدينة تأتى من مصر، فإذا ما وصل هذا الجراد إلى مصر أصاب الناس القحط وغلت الأسعار، فقال: إنه رجع عن رأيه.

ومصر حمى الله وكنانة أرضه، وفى مصر نجباء يحرسونها وهم سبعون كلهم رجال الله وليس منهم فاسق ولا ظالم، وإذا ما بلغ الجراد مصر من مكة فهو هالك، ودعا الله قائلاً: كل من نظر إلى مصر بعين الحقارة حُقر وذل، ومن عدل سلم،

من عدل فى مصر القديمة ∴ أعزته مصر بنعمها

وكم من آيات شريفة نزلت فى شأن مصر ولكن بسبب قوة ذاكرتى ألهمت كتابة هذه الآيات الشريفة، وقد رغب المصطفى ﷺ صحابته الكرام فى فتح مصر.

ذكر الأحاديث الشريفة التى ورد فيها ذكر مصر

قال رسول الله ﷺ: «افتحوا مصر فاستوصوا بالقبط خيرًا فإن لهم ذمة ورحمًا»، فسيدنا إسماعيل بن إبراهيم ـ عليه السلام ـ ولد للسيدة هاجر من قبابطة مصر، والرسول ﷺ من ذرية إسماعيل بن إبراهيم ـ عليه السلام ـ، وكانت أم النبى من

(١) سورة الأعراف: الآية ١٣٧.

مصر، والحديث الآتى ذكر خاص بالسيدة هاجر ومصر، قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «ستفتحون مصر وهى أرض تسمى القيراط، فاستوصوا بأهلها خيرًا فإن لهم ذمة ورحمًا». وقال ـ عليه الصلاة والسلام: «استوصوا بالأدم الجُعْد» والجعد بمعنى أسمر اللون، ويطلق على القبط. وقال ﷺ: «إن إبليس دخل العراق وقضى حاجته فيها، ثم دخل الشام فطرد حتى بلغ ميسان ثم دخل مصر فباض فيها وفرخ وبسط عبقرته».

وقال ﷺ الجزة روضة من رياض الجنة، ومصر خزائن الله فى أرضه»، كما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «إن ولد مصر معاف من الفتن ومن يريدهم بسوء إلا صرعه ولا يريد أحدًا إهلاكهم إلا أهلكه، من يقصده بسوء غيرّ الله وجهه، ونهرها نهر العسل، ومأدبة من الجنة وكفى بالعسل طعامًا وشرابًا».

وكم من حديث شريف جاء فى شأن مصر، إلا أننى اكتفيت بهذا القدر من الأحاديث وكم من عالم وشيخ وشاعر نظم شعرًا فى مصر.

وقال الشيخ الكندى ـ رحمه الله ـ لا يُعلم بلد فى أقطار الأرض أثنى عليه الله فى القرآن الكريم بمثل هذا الثناء ولا وصفه بمثل هذا الوصف، ولا شهد له بالكرم غير مصر. كما مدح الإمام الشافعى والإمام الليث وعمر بن الفارض لمصر كأنما مدحوا إرم ذات العماد.

وقد سلف ذكر الحديث الذى قاله ﷺ لأصحابه ترغيبًا فى فتح مصر، ولكن فى عهد النبوة لم يسترح ﷺ من المغازى والسرايا، وقال: «الأمور مرهونة بأوقاتها» ثم انتقل إلى الرفيق الأعلى وآلت الخلافة إلى أمير المؤمنين أبى بكر الصديق، وفى عهده وقعت الفرقة بين الصحابة وظهرت أحداث متباينة، فما استطاعوا إلى مصر التفاتًا، كما امتثل قول ربه: ﴿ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ ﴾[1]، وأفضت الخلافة إلى الفاروق عمر ـ رضى الله عنه ـ، فعقد النية على فتح مصر.

* * *

(١) سورة الفجر: الآية ٢٨.